المحاضرة السادسة

خصائص الثقافة

الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يمتلك جهاز عصبي خاص وقدرات عقلية فريدة تتيح له امكانية ابتكار افكار واعمال جديدة, ويتميز ذلك الجهاز العصبي كذلك بقدرة فائقة على تغيير السلوك البشري من وقت لاخر للتكيف مع الظروف البيئية والاجتماعية الجديدة دون الحاجة الى ضرورة حدوث تغيرات عضوية, فمثلا انتقل الانسان العاقل من المناطق الدافئة الى المناطق الباردة جدا وتكيف معها عن طريق اختراع الملابس المصنوعة من الصوف والفراء وكذلك عن طريق اختراع بناء المسكن في داخل الثلوج, وانتقل الانسان كذلك من المناطق الدافئة الى المناطق الاستوائية وتكيف معها باختراع افكار واعمال جديدة مثل عدم استعمال الملابس واختراع مساكن تخفف من الحرارة والرطوبة وما الى ذلك, وانتقل الانسان من طور جمع القوت الى طور الصيد واخيرا الى طور الرعي والزراعة دون ظهور تغيرات عضوية تذكر, وانما تغير هو ثقافته اي مجموع افكاره واعماله.

لماذا يختص الانسان وحده دون سائر المخلوقات بالثقافة بينما يشترك مع بعض الحيوانات في المعيشة داخل مجتمع؟

حياة المجتمعات التي تعيشها الفيلة وجماعات النحل والنمل وغيرها هي تصرفات فطرية, يرى الكثيرون ان الانسان كذلك لديه دافع فطري يحتم عليه التجمع في جماعات مختلفة الحجم. ومن هنا يتضح ان المعيشة في جماعات تمثل سلوكا فطريا. وبما ان بعض الحيوانات تشارك الانسان ذلك الدافع وغيره من الدوافع الفطرية فان ظاهرة تكوين المجتمعات لا ينفرد بها الانسان وحده. اما فيما يتعلق بالثقافة فالامر يختلف تماما. وذلك لان الثقافة هي افكار يخترعها العقل البشري وينفذها الانسان باعضائه وبغيرها من الادوات والالات التي يصنعها. ولا خلاف على ان العقل – ونقصد به هنا القدرة على التفكير وبالتالي على اختراع الافكار والاعمال التي من شانها اشباع حاجات الانسان والتكيف مع البيئة- قدرة خاصة بالانسان وحده. واذا نظرنا ببساطة للحياة امامنا, لا نجد حيوان غير الانسان يصنع الادوات والالات والمساكن والاثاث والمدن والمصانع..., ولا نجد حيوان غير الانسان له لغات متمايزة في اصواتها وحروفها وقواعدها, ولا نجد حيوان غير الانسان له قيم تنير له الطريق بحيث تحدد له ما يجب ان يكون عليه سلوكه, والعقل ليس ملكة غيبية ولكنه يتمثل في مجموعة من المراكز العصبية والحسية في مخ الانسان. ولا يوجد عند غي الانسان مثل تلك المجموعة بل ان الانسان يتميز بمراكز عصبية معينة لا توجد عند غيره ومن امثلة ذلك مركز التخيل ومركز التذكر. وهكذا يتضح مما سبق ان الثقافة خاصة بالانسان فقط.

**الخاصية الاولى** من خصائص الثقافة هي تمايزها واستقلالها عن الافراد الذين يحملونها ويمارسونها في حياتهم اليومية. والمقصود بذلك ان عناصر الثقافة امور يكتسبها الانسان بالتعليم من المجتمع الذي يعيش فيه, على اعتبار انها هي (التراث) الذي يتراكم على مر العصور. بحيث يتمثل في اخر الامر في شكل التقاليد المتوارثة. والواقع ام كل العلماء الذين تعرضوا لمشكلة تعريف الثقافة يعطون اهمية كبرى لعنصر التعليم او الاكتساب ويبعدون عنها بالتالي كل ما هو غريزي او فطري او موروث بيولوجيا. مثال ذلك ما يذكره العالم البريطاني جراهام والاس *Graham* *Wallas* من أن الثقافة هي تراكم الأفكار والقيم والأشياء، أي أنها هي التراث الذي يكتسبه الناس من الأجيال السابقة عن طريق التعلم، وعلى ذلك فهي تتميز عن التراث البيولوجي، الذي ينتقل إلينا آليا عن طريق الجينات، وهذا الموقف الذي ينص على)تراكمية) الثقافة واكتسابها عن طريق التعلم نجده لدى عالم الاجتماع دي روبرتي
*De* *Roberty*، الذي يذهب إلى أن الثقافة هي حصيلة الفكر والمعرفة في المجالين النظري والعملي، وعلى هذا فهي تعتبر خاصية من خواص الإنسان دون غيره، وهذا ما يذكره مالينوفسكي *Malinowski* في كثيرٍ من كتاباته.

وعلى ذلك فان معظم هذه التعريفات توكد ان الثقافة هي حصيلة العمل والاختراع والابتكار الاجتماعي, او انها حصيلة النشاط البشري, وان وجودها مرتبط بوجود الافراد من حيث هم افراد, وهذا ما جعل هربرت سبنسر ثم كروبر وغيره من بعده يستعملون اصطلاح ما فوق عضوي في كلامهم عن الثقافة *Superorganic* وعلى اية حال فحين يتكلم علماء الانثروبولوجيا عن ثقافة شعب من الشعوب فانهم يقصدون على العموم طرائق المعيشة وانماط الحياة وقواعد العرف والتقاليد والفنون والتكنولوجية السائدة في ذلك المجتمع والتي يكتسبها اعضاؤه ويلتزمون بها في سلوكهم وفي حياتهم.

**الخاصية الثانية** من خصائص الثقافة هي الاستمرار, وهي خاصية تابعة بالضرورة من تصور الثقافة على انها التراث الاجتماعي الذي يرثه اعضاء المجتمع من الاجيال السابقة على حد تعبير راالف لينتون *R. Linton* فللسمات الثقافية قدرة هائلة على الانتقال عبر الزمن, بل ان كثيرا من هذه الملامح والسمات التي تتمثل بوجه خاص في العادات والتقاليد والعقائد والخرافات والاساطير تحتفظ بكيانها لعدة اجيال لا لشئ الا انها وجدت في وقت من الاوقات في المجتمع, فتظل موجودة حتى بعد ان يزول السبب الذي ادى الى ظهورها في اول الامر. وقد يتعرض المجتمع كله لبعض عوامل التغير التي تبدل –بشكل مفاجئ او بالتدرج- الظروف العامة التقليدية, ومع ذلك يفلح بعض هذه السمات في البقاء والاستمرار مع احتفاظها بصورتها الاصلية. بل اكثر من ذلك ان ملامح الثقافة وسماتها تنتقل بالفعل من مجتعل اخر نتيجة الهجرة او غيرها من وسائل الاتصال الثقافي كاللغة مثلا. ولقد شغلت هذه الفكرة اذهان كثير جدا من العلماء الذين اهتموا بتتبع تاريخ الثقافة ونتقالها عبر الزمن وفي العالم اجمع, وظطروا لان يفترضوا في سبيل ذلك افتراضات كثيرة لا تسندها في بعض الاحيان الادلة اليقينية. بل ولا يزال كثير من العلماء المحدثين الذين يهتمون في المحل الاول بدراسة الثقافة في المجتمع المحلي يحاولون ان يعرفوا تاريخ تلك الثقافة, على اساس انها عملية مستمرة متصلة وان معرفة الماضي تساعد بذلك مساعدة فعالة على فهم الحاضر.

**الخاصية الثالثة** هي ان الثقافة كل معقد الى ابعد حدود التعقيد, نظرا لاشتمالها على عدد كبير جدا من السمات والملامح والعناصر التي حاولت بعض التعريفات ان تذكر جانبا منها كما هو الحال في تعريف تايلور مثلا. ويرجع ذلك التعقيد الى حد كبير الى تراكم التراث خلال عصور طويلة من الزمن, وكذلك استعارة كثير من السمات الثقافية من خارج المجتمع نفسه. وهذا التعقيد معناه في الحقيقة ان الفرد لن يستطيع ان يكتسب كل عناصر الثقافة السائدة في المجتمع الذي ينتمي اليه, كما يعني ايضا ان عالم الانثروبولوجيا لن يستطيع مهما جاهد ان يسجل كل مظاهر وسمات اي ثقافة من الثقافات التي يدرسها مهما بلغت من البساطة. وهذه نقطة هامة ياخذها العلماء دائما في اعتبارهم وهم يقومون بدراساتهم الحقلية, وكذلك اثناء تحليلهم للمعلومات الاثنوغرافية التي جمعوها اثناء هذه الدراسات الحقلية. ولقد حاول بعض العلماء ان يردوا ذلك التعقد الى شئ من البساطة التي تساعد على تحليل الثقافة فميزوا بين نوعين من الثقافة هما: الثقافة المادية والثقافة اللامادية, بحيث تشمل الثقافة المادية كل ما يصنعه الانسان في حياته العامة وكل ما ينتجه العمل البشري من اشياء ملموسة وكذلك كل ما يحصل عليه الناس عن طريق استعمال فنونهم التكنولوجية, بينما تشمل الثقافة اللامادية مظاهر السلوك التي تتمثل في العادات والتقاليد والتي تعبر عن المثل والقيم والافكار والمعتقدات.

ولكن بعض العلماء يميلون الى اخراج (الثقافة المادية) من الميدان على اساس انها مجرد حصيلة للنشاط المقرر ثقافيا, وانها قد تساعد فقط على فهم ومعرفة الثقافة (الحقيقية) ولكنها لا تكفي وحدها لان تعرفنا بحياة التاس وعوائدهم وتقاليدهم.

وبقد ذهب بعض العلماء في محاولتهم تحديد مجال الثقافة الى ان يقصروها على الافكار والتصورات المجردة, على اساس ان كلمة (ثقافة) ذاتها توحي بذلك, ولكن هذا الرأي لا يجد على العموم ترحيبا من معظم العلماء الذين اتيحت لهم فرصة القيام بالدراسات الحقلية والاتصال عن كثب بالثقافات التقليدية بحيث امكنهم ان يلمسوا الملامح والسمات الثقافية المختلفة في تداخلها وتفاعلها, وادركوا بالتالي ان من الصعوبة بمكان, بل من العبث, فصل مظاهر السلوك العادية المشخصة والملموسة عن الافكار والتصورات والقيم التي تختفي وراء هذا السلوك, وقد يمكن التمييز على العموم في هذا الصدد بين اتجاهين رئيسيين:

***الاتجاه الاول:*** اتجاه واقعي, وهو يتمثل بوجه خاص في كتابات واراء مالينوفسكي وبواس, ويرى اصحابه ان مجال الثقافة هو السلوك البشري الاجتماعي, ولذا فهم يميلون الى تعريف الثقافة في حدود والفاظ العادات وقواعد العرف والتقاليد المكتسبة والموروثة, كما يميلون الى حد ما بغير شك, الى اغفال الجوانب المثالية والمعيارية في الثقافة. أي ان هؤلاء العلماء لا يفصلون الثقافة عن حياة الناس في المجتمع, وانما يعتبرونها انماطا من السلوك الاجتماعي, ومن هذه الناحية يصبح من العسير تصور وجود ثقافة بعيدا عن الجماعات البشرية, أي بعيدا عن المجتمع. فالرأي السائد بين هؤلاء العلماء هو انه يلزم لوجود ثقافة وجود زمرة اجتماعية تمارسها وتتوارثها. واذا كانت الثقافة عندهم تعني في المحل الاول (التراث) الثقافي الملموس الذي يتمثل في مختلف الصناعات والادوات والمعدات المادية, فانهم لا يغفلون النظم والعادات وقواعد العرف التي توجد في المجتمع ونوجه سلوك الناس وتصرفاتهم بل وترسم لهم.

***والاتجاه الثاني*** تجريدي يميل على العكس من الاتجاه الواقعي الى تعريف الثقافة, في حدود والفاظ المثل الاجتماعية والى اغفال الممارسات الواقعية التي تدخل ضمن المكونات الحقيقية للثقافة. واصحاب هذا الاتجاه يتصورون الثقافة هي مجموعة الافكار والتصورات التي توجد في اذهان اعضاء المجتمع وكذلك المعايير والانماط الذهنية التي توجه على اي حال السلوك الاجتماعي[[1]](#footnote-1)(1). ولكنهم حين ينبذون مظاهر السلوك المشخص فانهم يتصورون في الحقيقة الثقافية شيئاً مجردا, ولذا كان بعضهم يستعين في فهمها وتقريبها للاذهان ببعض الافكار الفلسفية مثل فكرة (ما فوق عضوي).

وقد يكون من الصعب قبول اي من هاتين النظرتين والاكتفاء بها, اذ على الرغم من ان التجاه الغالب بين العلماء الثقافيين هو اغفال الجوانب المثالية والمعيارية للثقافة, وتركيز الاهتمام على النواحي الموضوعية الخالصة والاكتفاء بدراسة السلوك والتفكير المكتسب, فالواقع ان هذه الانماط الثقافية المشخصة تتاثر تأثرا عميقا بالمثل والتصورات الذهنية مما يختم على الباحث دراسة المظهرين معا. كما ان الاقتصار على دراسة هذه التصورات الذهنية والمثل والمعايير بعيدا عن مظاهر السلوك الواقعي معناه ان تصبح الانثروبولوجيا الثقافية ضربا من (ما وراء الانثروبولوجيا) او (ما بعد الانثروبولوجيا), اذ يجب الا يغيب عن الاذهان ان موضوع الانثروبولوجيا هو بعد كل شيء دراسة الظواهر الثقافية في المجتمع.

وقد ناقش الأنثروبولوجي ليزلي هوايت *L. White* هذين الاتجاهين حيث يفسر اسباب ظهور الاتجاه التجريدي في تعريف الثقافة على اساس ان تعريف الثقافة بانها السلوك الانساني سيجعلها موضوع لعلم النفس, وهذا هو ما يرفضه علماء الانثروبولوجيا بشدة, لانهم جميعا يتفقون على استقلال علمهم عن علم النفس وعن أي علم اخر, وكل لتلك المشكلة رأى الاتجاه التجريدي ان يترك السلوك كموضوع لعلم النفس, ويجعل الثقافة هي تجريد السلوك وبالتالي يحافظ على شخصية الانثروبولوجيا الثقافية المستقلة. ويعارض *White* كغيره من علماء الانثروبولوجيا احتمال اندماج الثقافة في موضوعات علم النفس, ولكنه في نفس الوقت يعارض بشدة تعريف الثقافة بانها تجريدات غير محسوسة وغير قابلة للملاحظة, لان هذا التعريف سيبعد الانثروبولوجيا الثقافية عن نطاق العلم. لان العلم سواء كان طبيعيا او اجتماعيا لا بد ان يدرس امراً محسوسا واقعيا يمكن ملاحظته وقياسه والتعبير عنه كميا كلما امكن ذلك. وينتهي*White* الى تعريف الثقافة، القائلة بأن الثقافة هي الأمور المحسوسة التي تتمثل في الأشياء والأفعال والأفكار التي هي من صنع الإنسان، وعلى عالم الأنثروبولوجيا الثقافية أن يلاحظ تلك الأمور المحسوسة بصورة موضوعية وأن يطبق طرق البحث العلمي بغرض دراسة طبيعتها بدقة والوصول في النهاية إلى القوانين الخاضعة لها. وبهذه النظرية يتضح بأن*White* يرفض الاتجاه التجريدي لكي يحافظ على استقلالية الأنثروبولوجيا عن علم النفس (في دراسة السلوك) ويأخذ بالاتجاه الواقعي.

1. (1) د. احمد ابو زيد, محاضرات في الانثروبولوجيا الثقافية. دار النهضة العربية, بيروت, 1978, ص48. [↑](#footnote-ref-1)